# الفصل السابع

## الاختبار، الاختبار

من بين الموضوعات التي نغطيها في هذا الكتاب كلها، لا أظن أن إحداها تستثير استجابة انفعالية مثل عملية الاختبارات المقنَّنة عالية الخطر؛ يزخر الإنترنت بفيديوهات لمعلمين يصرخون، وأولياء أمور ينفجرون غضبًا (أو العكس) عند مناقشة هذا الموضوع، تمرُّ ملايين الكلمات في فضاء التدوين على الإنترنت تفصِّل في مدى الضغط والقلق والإحباط والضرر المزدوج الذي تحدثه الاختبارات عالية الخطر، ولم يكن الصخب احتجاجًا على انتشار الاختبارات المقنَّنة أعلى مما هو في المدَّة الحالية، مع ذلك ما زالت تهيمن على المشهد التعليمي في أمريكا والعالم كله، ولنأخذ روندا ماثيوس Rhonda Matthews، وهي معلمة للصف الخامس مثالًا لذلك.

فهي تقول[1] «سأصف لكم مشهد الاختبارات في الصف الخامس، إننا نخسر شهرًا من التدريس بسبب هذه الامتحانات. مدة هذه الامتحانات ستة أيام إجمالًا موزعة على أسبوعين، وأشعر أنه من الظلم لطلابي ألا أمنحهم بعض الوقت حتى يجدوا الفرصة للتدريب على الاختبارات، وعرض بعض إستراتيجيات الاختبار عليهم، ويستغرق هذا أسبوعين آخرين، وهذا أدنى ما يمكن أن تستغرقه الامتحانات عمومًا، فأنا أعلم أن المدارس الأخرى تخسر وقتًا أكثر من ذلك في الاختبارات.

توقف اختبارات الولاية طرائق التفكير والنقاش وبناء المجتمع كافة، فما إن تبدأ إعدادات الاختبار، حتى يتوقف أي حوار حقيق، وبسبب القيود الزمنية في أثناء الاختبارات، أقول لطلابي: من فضلكم لا تفكروا كثيرًا في النص، وركزوا على إجابة الأسئلة. فالإعداد للاختبار

الذي أنوي إجراءه هذا العام، لن ينصب على المحتوى، فأنا أشعر بالثقة أن طلابي يستطيعون القراءة والتفكير، وسينصب الإعداد للاختبار هذا العام على السرعة والعمل الفعال تحت ضغط».

قبل أن تطرح إدارة جورج دبليو. بوش قانون عدم حرمان أي طفل في عام 2001م، كانت الحكومة الفيدرالية تفرض على الطلاب اجتياز ست اختبارات على مدار المسار التعليمي المدرسيِّ، من الحضانة وحتى الصف الثاني عشر، واحد منها في القراءة والرياضيات في كل من المراحل الثلاث الابتدائية، ثم المدرسة المتوسطة، ثم المدرسة الثانوية، وحاليًّا يقتضي التأهُّل لتلقي التمويل الفيدرالي أن تُجريَ النظم المدرسية أربعة عشر اختبارًا مقنَّنا في القراءة والرياضيات، بالنسبة إلى طلاب المدارس العامة، وفي عام 2014م، يُفرض على الطلاب جميعهم، تحقيق مستوى ما، يوصف بالكفاءة أو أعلى، لكن بعض المناطق التعليمية لا ترى ذلك كافيًا، وتشترط عددًا أكبر من الاختبارات، والمدارس التي تخفق في الوفاء بهذه المعايير تتعرض هيئة العاملين بها إلى إنهاء الخدمات، وربما تتعرض المدرسة للإغلاق.

سُمح للولايات بالتقدم للحصول على تمويل تكاليف الدراسة، وكان الحد الزمني الأقصى عام 2014م، لكن أحد شروط ذلك كان تبنِّي ما يعرف بالمحتوى الأساسي المشترك Common Core . وفي أبريل 2014م، صارت واشنطن أول ولاية تفقد تمويل تكاليف الدراسة؛ لأنها لم تشترط على المناطق التعليمية استخدام درجات اختبار واحدة على مستوى الولاية في تقويمات المعلمين. تضع خسارةُ تمويل تكلفة التعليم قيودًا قاسية على كيفية إدارة الولاية للأموال الفيدرالية، ما دفع أحد مسؤولي التعليم إلى قول: «لا أظن أن ثمة أي طريقة تجنبنا تعرض الطلاب للأذى جراء ذلك»[2].

فما المشكلات الحقيقية هنا؟ وما الحلول الممكنة؟

## المعايير والتقنين المعياري

لست ضد صور التقنين المعياري كافة، ففي بعض المناطق كانت له فوائد ضخمة. لقد تحدثت مؤخرًا في المؤتمر السنوي للمنظمة المسؤولة عن الباركود barcode (شريط الرموز)، نعم، ثمة مجموعة من الباركود. وهي أنساق صغيرة من الخطوط السوداء والأرقام تلحق حاليًّا

بأي منتج. وقد اخترع نورمان جوزيف وودلاند Norman Joseph Woodland أول باركود في عام 1948م، وكان طالب دراسات عليا في الهندسة الميكانيكية، ونتجت الفكرة عن محادثة سمعها من بعيد بين وكيل الكلية لشؤون الطلاب وأحد التنفيذيين في سوق تجاري، كان يبحث عن طريقة أفضل لحساب المخزون. وذات يوم، كان وودلاند يجلس على الشاطئ يفكر في هذه المشكلة، فرسم نقاط موريس وخطوط شيفرته على الرمال، ثم رسم بإصبعه خطوطًا طولية متوازية في الرمال، فولدت الفكرة.

يوجد الباركود حاليًّا في كل مكان، مما يمكن المؤسسات من تتبع كل قطعة منتجة تحمله، وقد أحدث هذا ثورة في إدارة خط التموين، وسهل وضع معايير جودة في إنتاج الغذاء والاستيراد والتصنيع والدواء ومجالات أخرى لا تحصى، وساعدت على التزام المنتجات بمعايير قياسية للجودة مهما كان منشؤها، ولا شك أن حياتنا تحسَّنت تحسنًا كبيرًا نتيجة لذلك.

وضع المعايير مفيد في بعض المجالات، وينطبق هذا على التعليم أيضًا، ومع ذلك ثمة مشكلتان: الأولى -كما أردِّد دائمًا- أن الناس ليسوا على صور مقنَّنة، وحتى ينجح التعليم المشخصن، ينبغي أن يراعيَ الفروق التي ناقشناها؛ أي ضرورةَ تطبيق المعايير بحرص شديد. المشكلة الثانية: أن عملية التقنين لا تصلح إلا لنواحٍ معينة في التعليم، ولا تصلح المعايير لكثير من أهم الجوانب التي تحتاج إلى التطوير في المدارس؛ تتجلى هذه المشكلات إلى حد بعيد في الكيفية التي أثرت بها حركة المعايير في المدارس على أرض الواقع؛ إذ ترتب عليها عاقبتان كارثيتان.

صارت الاختبارات المقنَّنة standardized testing هوسًا في ذاتها بدلًا من أن تكون أداة لتحسين التعليم؛ فحتى الأطفال الصغار ينفقون قدرًا كبيرًا من وقتهم في المدرسة، يجلسون إلى مكاتبهم يستعدون للاختبارات، أو يُختبرون أو يتحدثون عن اختبارات سابقة، وكما قال لي مونتي نيل Monty Neil؛ وهو مدير تنفيذي في فير تست (الاختبار العادل): تكاثرت بصورة غير معقولة الامتحانات التي تجريها المناطق التعليمية قبل الولايات. فهم يشترون اختبارات رخيصة رديئة الصنع، يفترض أنها تتنبأ بمستوى أداء الطلاب في الاختبار الكبير في نهاية العام، والأطفال الذين لا يؤدون أداءً طيبًا فيها يتلقون المزيد من الإعداد للاختبار. وفي معظم

المدن الكبرى، ستجد على الأقل ثلاثة اختبارات قياس دورية، وفي بعض الحالات، يجرى اختبار شهري، وفي حالات أخرى سمعنا عن أكثر من ذلك.

تتوقف أشياء كثيرة على هذه الاختبارات؛ لذلك ثمَّة ضغط كبير في كل مكان على التدريس من أجل الاختبارات، مع إهمالٍ للأشياء التي لا تختبر. ثانيًا، تعقد هذه الاختبارات على نطاق واسع، لذلك تركز على صور محدودة من الاستجابة، أغلبها صور الاختيار من متعدد التي تصحح باستخدام ماسحات ضوئية، مما يفقد الاختبار أي لمحة خاصة أو تعقيد؛ فالاختبارات لا تكاد تراعي عوامل السياق التي تؤثر في أداء الطلاب.

يقول مونتي :لا تقيس الاختباراتُ أشياء مهمة كثيرة، ويتصف قياسها بالمحدودية الشديدة، وإن ما يُستمدُّ منها من اشتراطات ومعلومات يهيمن بصورة أساسية على الفصل الدراسي، ويجعل من الصعب جدًّا على المعلمين تخصيص وقت لأشياء من المهم أن يعرفها الطلاب ويستطيعوا أداءها، أو لجذب اهتمامهم وانتباههم. عندما تكون الاختبارات المقننة العامل الأول في المحاسبة، فالأقرب هو استخدام الاختبارات لرسم حدود المنهج المدرسيِّ، وتكثيف ما يُتعلَّم، ويصير نموذج تدريس المادة هو طريقة اختبار المادة، وفي أسوأ الحالات تتحول المدرسة إلى برنامج للإعداد للاختبار.

أدى الضغط الممارَس لرفع درجات التحصيل في الاختبارات المقنَّنة إلى تضييق مدى القياسات التي يستخدمها المعلمون؛ على سبيل المثال في أحد تقارير فير تست بشأن قانون عدم حرمان أي طفل ،تقول معلمة إنها اضطرت إلى تقليل عدد تقارير الكتب التي كانت تطلبها من الطلاب؛ بسبب الوقت المطلوب للإعداد للاختبار. وتتردد هذه القصص نفسها آلاف المرات بطول البلاد وعرضها. يُعَدُّ ألفي كون واحدًا من أفصح وأعلم النقاد بالمعايير والتقنين المعياري بصورها المختلفة، وكان ألفي معلم صفٍّ، وهو الآن مؤلف ومدرب ومستشار، ويوضح في سلسلة من الكتب ودراسات الحالة- الآثارَ السلبية الكثيرة لهذا الأسلوب في القياس، على جودة التدريس والتعلم[3].

يقول يونغ زاو Yong Zhao، من جامعة أوريغن، إن محاولات تقنين المنهج، وطرائق التدريس في الدول المتقدمة تضر الطلاب هناك على جبهتين: الأولى، التركيز على المهارات التي لا يحتاجها الطلاب من المناطق الأقل تطورًا، فيقول: «إذا طلب من الأطفال كلهم أن يتقنوا

المعرفة والمهارات نفسها، فإن من كانت تكلفة الوقت لديهم أقل سيتميزون عن أولئك الذين يكلفهم الوقت ثمنًا أعلى، فثمة كثير من الجوعى في العالم النامي مستعدون للعمل مقابل عُشر ما يحتاجه العاملون في الدول المتقدمة. إذا كانت المنافسة عالمية، فالمؤكد أن الدول المتقدمة ستعرض شيئًا مختلفًا اختلافًا نوعيًّا؛ أي شيئًا لا يمكن الحصول عليه بتكلفة أقل في الدول النامية، والمؤكد أن هذا الشيء ليس درجات عالية في مواد قليلة، أو ما يسمى بالمهارات الأساسية»[4].

ثانيًا، جاء التركيز على الاختبارات على حساب تعليم الأطفال كيف يوظفون إبداعهم الفطريَّ ومواهب التعامل مع العالم، وهي المواهب ذاتها اللازمة لحمايتهم من تقلبات المستقبل في الدنيا كلها. تثير فير تست النقطة نفسها في القرار القومي بشأن الاختبارات عالية الخطر الذي أعدَّته، وتقول فيه: «إن الإفراط في الاعتماد على الاختبارات المقننة العالية الخطر في نظم المحاسبة على مستوى الولاية والاتحاد، يهدم الجودة التعليمية والمساواة في مدارس الولايات المتحدة العامة؛ لأنها تعوق جهود المعلمين في التركيز على مدى واسع من الخبرات التعليمية التي تنمي الابتكار، والإبداع، وحل المشكلات، والتعاون، والاتصال، والتفكير النظري، والمعرفة العميقة بالمادة العلمية،التي تسمح للطلاب بالتقدم في النظام الديموقراطي، وفي مجتمع واقتصاد يزداد توجههما نحو العالمية»، كما جاء في تقرير المنظمة[5].

توجد هنا مشكلة أخرى؛ إذ لأن لنتائج الاختبار أثر كبير في عملية تمويل المدرسة وتقييم المعلمين، فإن ذلك يؤدي ببعض المدارس والمناطق التعليمية والولايات إلى التلاعب في الأرقام بطريقة مختلفة، فغالبًا لا تهتم المدارس «إلا بالطلاب الذين على حافة الرسوب بأمل دفعهم إلى قائمة الناجحين، وهذا يعني غالبًا إهمال متدنِّي التحصيل والمتفوقين» كما ورد في تقرير **فير تست**؛ فالطلاب الذين لا يؤدون أداءً طيبًا في الاختبار، يمكن استبعادهم من البرنامج حتى لا يتسببوا في خفض النتائج الإجمالية، وقد قيل لي كثيرًا إن بعض أولياء الأمور يطلبون أن يصنف أطفالهم ضمن من لديهم مشكلات في الانتباه، ويخضعون للعلاج؛ لأن هذا التشخيص يسمح للأطفال بالمزيد من الوقت لإتمام الاختبارات، فقد صار اضطراب نقص الانتباه وفرط النشاط Attention-deficit/hyperactivity disorder (ADHD) ظرفًا إستراتيجيًّا.

## رفع الأخطار إلى مستويات أعلى

ليست الاختبارات المدرسية من الروضة حتى الصف الثاني عشر، التي تجريها الولاية هي نقطة الضغط الوحيدة على الطلاب وأولياء الأمور، وربما كان اختبار الكفاءة الدراسية أكثر الاختبارات المقنَّنة التي تسبب القلق؛ فقد كان هذا الاختبار في العقود التسعة الأخيرة العقبة الأساسية التي ينبغي على الطلاب اجتيازها حتى يلتحقوا بالجامعة، وقد سبب اختبار الكفاءة الدراسية إزعاجًا كبيرًا في حياة طلاب المدارس الثانوية، لدرجة أنه هيأ الظروف لنشأة صناعة للإعداد للاختبار، تدرُّ قُرابة بليون دولار سنويًّا[6].

استطاع نيخيل غويال Nikhil Goyal أن يجعل من نفسه صوتًا قويًّا مطالبًا بإصلاح تعليمي بوساطة أحاديثه العامة ودعوته وكتبه، وهو ما زال في سن المراهقة. انتقل نيخيل وهو في المرحلة الثانوية مع أسرته من حي من أحياء الطبقة الوسطى إلى حي من أحياء الطبقة الوسطى العليا، فبدأ ضغط اختبار الكفاءة الدراسية يدخل حياته، وهو يقول: «كان ثمة تنافس كبير في مدرستي الجديدة على دخول الجامعة، ولاحظت أن الشباب كانوا تحت ضغط شديد، حتى أثر ذلك تأثيرًا كبيرًا في صحتهم. كانوا ـ في رأيي ـ مثل الإنسان الآلي، مذعنين تمامًا، يلتزمون بالتعليمات بسهولة حتى جفَّ عندهم الإبداع وزال الفضول. يعاني كثير من الصغار متلازمةَ ستوكهولم مع أنهم من أكثر الشباب تمتعًا بالميزات في أمريكا، ومع ذلك فإنهم من أشد المدافعين عن هذا النظام كما هو؛ لأنهم ينجحون فيه، فهم يحصلون على درجات عالية، ويستعدون للالتحاق بجامعات هارفارد وييل وبرينستون».

من الطريف أن واحدًا من أكبر اللاعبين في صناعة الإعداد للاختبار حاليًّا يحمل احتقارًا شديدًا لهذه الاختبارات؛ يقول جون كاتزمان John Katzman، وهو أحد مؤسسي برينستون ريفيو Princeton Review: «لا تقيس هذه الاختبارات شيئًا ذا قيمة، وتحمل احتقارًا محضًا للمعلمين والطلاب الذين يفرض عليهم عدم الكفاءة فرضًا»[7].تؤيد الدراسات وجهة نظر كاتزمان، بما في ذلك تقارير متعددة، توضِّح أن متوسط نقاط الدرجات في المدارس الثانوية مؤشر أقوى بكثير على النجاح في الجامعة من درجات اختبارات الكفاءة الدراسية .

بدأت فير تست منذ 1985م، الدعوة لقياس محايد على أساس الجنس والنوع والطبقة والثقافة، وهي تبذل جهدًا كبيرًا لتقليص استخدام الاختبارات المقنَّنة، وأثرها في الطلاب والنظم المدرسية. أخبرني مونتي أن «غرضنا الأسمى هو منع استخدام الاختبار المقنَّن عالي

الخطر للالتحاق بالكليات أو الجامعات، بما في ذلك الدراسات العليا، وينبغي ألا يكون اجتياز اختبار مقنَّن الحاجزَ الأوحد في طريق التخرج، ورفع الدرجات، وقرارات اختيار المسار الدراسي، وما إلى ذلك».

يوافق اتحاد المعلمين الأمريكي American Federation of Teachers على أنه قد آن الأوان لإعادة التوازن إلى مدارسنا، حتى يكون التعليم والتعلم هما محور العملية التعليمية، وليس الاختبار، كما قالت رئيس الاتحاد راندي فينغارتن RandiWeingarten في عام 2012م[8]. ثم تواصل قائلة: تواصل السياسات التعليمية التي توجهها الاختبارات إجبار المعلمين على التضحية بالوقت المطلوب لمساعدة الطلاب على تعلم التحليل الناقد للمحتوى والتركيز على التدريس الموجه نحو الاختبارات. في أثناء المؤتمر القومي لاتحاد المعلمين الأمريكي في ذلك العام، أصدر الاتحاد قرارًا يقول في جزء منه: «نحن نؤمن بالقياسات التي تدعم التدريس والتعلم، وتنحاز إلى المنهج الدراسي، ولا تضيقه، التي توضع بوساطة تضافر الجهود، لا تُلتقطُ من فوق الرفوف».

بدأت الجامعات الأمريكية تفهم الأمر؛ إذ إن أكثر من 150 مدرسة تحتل مراتب عليا في فئاتها المختلفة، قد قللت من الأهمية المعطاة للمعلومات المستقاة من اختبارات الكفاءة الدراسية، وما على شاكلتها من الاختبارات، مثل اختبار قبول الكليات الأمريكية American College (ACT) Testing[9]. في الوقت نفسه بدأ مجلس الكليات (وهو الذي أنشأ اختبارات الكفاءة الدراسية) يدرك الحاجة إلى التغيير، حتى أعلن عن مراجعة شاملة للاختبار ستصدر في 2016م.

إذا كانت معارضة الاختبارات المقنَّنة بهذه القوة، فلماذا يخوض الطلاب عددًا كبيرًا منها حتى الآن؟ لنفهمَ ذلك، لابد أن نلقي نظرة على صناعة الاختبارات.

## الأخطار العالية ورفع الحد الأدنى

تزدهر صناعة الاختبارات والدعم التعليمي ازدهارًا كبيرًا؛ ففي عام 2013م، بلغ مجمل عائداتها في الولايات المتحدة وحدها 5,16 مليار دولار[10]. وحتى نضع هذا الرقم في سياق، نقول إن مجمل عائدات شباك تذاكر السينما داخل الولايات المتحدة كان أقل قليلًا من 11 مليار دولار[11]، وتبلغ قيمة الأعمال المتعلقة بدوري كرة القدم الأمريكي الوطني حاليًّا 9 مليارات

دولار[12]. يهيمن على صناعة الاختبارات أربعة لاعبين كبار، هم شركات: بيرسون Pearson، وسي تي بي ماكجرو-هيل CTB McGraw-Hill، و ريفرسايد ببليشينغ Riverside Publishing، وإديوكيشن تيستينغ سيرفيسيز Education Testing Services. وفي لحظة كتابة هذه السطور، تمتلك شركة بيرسون اتفاقات لإنتاج مواد اختبارات في ثماني عشرة ولاية أمريكية، وهي أعلى الشركات إنتاجًا للاختبارات المقنَّنة في البلاد، وتمتلك شركة سي تي بي ماكجرو-هيل عقودًا مع ولايات عدَّة بشأن اختبار تحصيل تيرانوفا وكاليفورنيا، وتقوم شركة ريفرسايد بوضع اختبارات المهارات الأساسية لولاية أيوا وغيرها. أما اختبار جي آر إي فهو أحد منتجات شركة إديوكيشن تيستينغ سيرفيسيز[13].

واجهت كل واحدة من هذه الشركات صعوبات عبر السنوات؛ ففي عام 2013م، واجهت شركة سي تي بي ماكجرو-هيل مشكلة كبيرة في عملية تسجيل درجات اختبارات ريجينتس Regents لمجموعة من طلاب السنة النهائية الثانوية من نيويورك سيتي، ما أدى إلى تأخر حصول هؤلاء الطلاب على شهاداتهم[14]. كما عُلِّقت اختبارات اللغة للمهاجرين، التي تعقدها شركة إديوكيشن تيستينغ سيرفيسيز في المملكة المتحدة بسبب ما عُدَّ -تحايلًا منهجيًّا-[15].

ثم تأتي الفضيحة المعروفة باسم باين أبل جيت Pineapplegate»، فقد كانت شركة بيرسون لسنوات عدَّة تضم في بعض اختبارات الولايات نصًّا للقراءة بعنوان (ثمرة الأناناس والأرنب البري)، فيه شخصية أرنب سحري وثمرة أناناس تتكلم، يدخلان في سباق ينتهي على نحو مأساوي بفوز ثمرة الأناناس، ثم تطرح أسئلة على الطلاب عن هذه القصة غير المعقولة، وكانت الاختيارات مربكة بقدر ارتباك النص نفسه. وقد استاء أولياء الأمور الذين سمعوا عن هذا النص، حتى إن بعضهم أنشأ صفحة على فيسبوك بعنوان (مغزى القصة هي أن ثمر الأناناس ليس له أكمام)، وفي ذلك إشارة إلى تفصيلة في القصة عما كانت ترتديه ثمرة الأناناس. تتساءل ليوني هايمسون Leonie Haimson، وهي وليُّ أمر وكاتبة تقيم في نيويورك: «لماذا نضع نصًّا للقراءة بأسئلة على هذا المستوى من التفاهة في امتحان مقنَّن على مستوى الولاية، سواء كان سؤالًا ضمن اختبار ميداني أو لأي غرض آخر؟ إذا وضعنا في الحسبان أن هذه الامتحانات عالية الخطر، وستستخدم في نيويورك سيتي لتقرير من سيستبعد من الطلاب، ودرجة المدرسة في تقارير التقدم، ففي المستقبل القريب، ستكون جزءًا أصيلًا في منظومة تقييم المعلمين الجديدة على مستوى الولاية. إن قصة لا معنى لها، وأسئلة ليس لها

إجابات صحيحة، من شأنه أن يدمر ثقة أي طالب في أول يوم من أيام اختبار فنون اللغة الإنجليزية English Language Arts ELA» الذي يستمر ثلاثة أيام، فهل وُضع هذا النص وأسئلته لهذا السبب؟»[16].

مهما كان الغرض الذي وُضع من أجله هذا الاختبار وغيره، فلا شك أن الربح ـ الوفير ـ أحد أغراضه من منظور هذه الصناعة. إن عمليات الاختبار ـ على النطاق الذي نراه الآن ـ هي أحد أمثلة تزايد التوجه التجاري في التعليم.

## أمُّ الاختبارات

يتأثر الدافع نحو تقنين القياس تأثرًا كبيرًا بالمنافسة الدولية، التي يقودها حاليًّا جداول اتحاد (بيسا) التابع لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، فقد حققت شنغهاي في 2012م أعلى الدرجات في القراءة والرياضيات والعلوم، وحصلت على المراكز الخمس الأولى دولٌ/ اقتصاداتٌ آسيوية، والمراكز الأربعة الأولى في العلوم آسيوية، وجاءت فنلندا في المركز الخامس. أما دول مثل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وفرنسا، فوجدت نفسها في منتصف هذه المجموعة[17]. وقد أسهم أداء الولايات المتحدة في هذه الجداول مؤخرًا إسهامًا مباشرًا في توجه الحكومة الفيدرالية نحو مفهوم الأساس المشترك.

مقاصد منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية لا شك طيبة، فالهدف هو تقديم دليل موضوعي متسق للمعايير الدولية في التعليم، ولا يمكن أن يعترض أحد على ذلك، لكن المشكلة ليست في النوايا، بل في الآثار؛ فنحن نسمع السياسيين عادة ـ لا سيَّما في الغرب ـ ينعون ترتيب بلادهم بين دول العالم في القراءة والرياضيات والعلوم، ويستخدمون هذا الترتيب لتأييد ضرورة فرض معايير أكثر صرامة في المدارس، وإملاء ما ينبغي الاهتمام به على المدارس وطريقة تنفيذ ذلك، ومع ذلك فإن بعض النظم المدرسية التي تحتل مكانة متقدمة في جداول اتحاد (بيسا) تجري اختبارات مقنَّنة أقل مما تجريه الولايات المتحدة؛ ففي سن الثانية عشر يدخل الطلاب في سنغافورة امتحان إتمام المرحلة الابتدائية، وهو امتحان عالي الخطر بصورة مباشرة؛ لأنه يحدد المدرسة المتوسطة التي سيدخلها أولئك الطلاب. أما الالتحاق بالمدارس بعد الثانوية، فيحدده أداؤهم في امتحان الشهادة العامة للتعليم المستوى العادي (O-level) أو المستوى الرفيع A-level[18] وفي الوقت نفسه، ليس في فنلندا سوى امتحان مقنَّن واحد، هو امتحان

القبول القوميِّ، وهو يأتي في نهاية المرحلة الثانوية العليا (وهو ما يوازي المدرسة الثانوية في الولايات المتحدة)[19].

تعد شنغهاي الاستثناء الوحيد المهم من هذا النسق من بين النظم التي تحتل قمة (بيسا)؛ لأن طلاب شنغهاي يتلقون وجبة منتظمة من الاختبارات المقنَّنة. مع ذلك- فكما رأينا سابقًا- تفكر شنغهاي بالتخلِّي عن اختبارات (بيسا). وتجرِّب فيتنام وتختبر صورًا من القياس والمحاسبة تبتعد عن القيود الضيقة للاختبارات المقنَّنة في المدارس الابتدائية، وتعتمد بصورة أكبر على تقدير المعلمين[20]. ويدرك اتحاد (بيسا) نفسُه ضرورةَ مراجعة الاختبارات والتفصيل في حوار حولها، إذا كان للتعليم ككل أن يصبح أكثر ارتباطًا بالحياة التي سيعيشها الطلاب فيما بعد.

يشغل أندرياس شلايشر Andreas Schleicher منصب مدير التعليم والمهارات والمستشار الخاص بالسياسة التعليمية للأمين العام لمنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وقد قال لي: لم يعد الاقتصاد العالمي يدفع لك مقابل ما تعرف؛ لأن غوغل يعرف كل شيء، بل يدفع لك مقابل ما تستطيع أن تفعله بما تعلم؛ فإذا كنت تريد أن تعرف إن كان شخص يفكر تفكيرًا علميًّا، أو يترجم مشكلة واقعية إلى سياق رياضي، فهذه الأمور صعبة القياس، لكنها كذلك لها أهمية أكبر في عالمنا اليوم، فنحن نرى انخفاضًا سريعًا في الطلب على المهارات المعرفية المعتادة في عالمنا، وأنواع الأشياء التي يسهل اختبارها وتدريسها هي الأشياء الأسهل في ترقيمها ومعالجتها أوتوماتيكيًّا، والأيسر في الحصول عليها من مصادر بعيدة.

وهو يقر بوجود حدود ثابتة لما يمكن أن تقيسه اختبارات الاختيار من متعدد، وأن نطاق الاستخدام هو أحد التحديات أمام الولايات المتحدة في إصلاح عملية القياس؛ نحن نحاول أن نقلل عدد من نختبرهم وعدد مرات الاختبار، ومن ثم نستثمر في جودة القياس. علاوة على أننا نحدد عدد الطلاب حتى نستطيع أن ندخل في الاختبار مهمات مفتوحة مثلًا، وأدوات مصممة حاسوبيًّا،تقدَّم بوساطة الحاسوب.

«لابد لنا من أن نحفظ التوازن دائمًا بين الأشياء المطلوب قياسها والأشياء الممكن قياسها؛ بدأنا في عام 2000م بالقراءة والرياضيات والعلوم، وفي 2003م، بدأنا بإضافة مكونات اجتماعية وجدانية، وفي 2012م، بات لدينا قياس لافت جدًّا لمهارات حل المشكلات إبداعيًّا.

يسألنا الناس لماذا لم نفعل هذا منذ البداية، لكننا في ذلك الوقت، لم نكن نمتلك أنظمة القياس الحاسوبي التي نمتلكها الآن.

من الصعب للغاية قياس المهارات الإبداعية إذا أعطيت طالبا مشكلة مكتوبة بالفعل على الورق، وطلبت منه أن يكتب إجابته على الورق؛ لأن مهارات حل المشكلات الإبداعية ترتبط- أكثر ما ترتبط- بالتفاعل مع المشكلة، وطبيعة تغير المشكلة في أثناء تفاعلك معها، ولا يتاح هذا إلا في بيئة محاكاة حاسوبية».

يقول أندرياس إنه بينما نلتزم التزامًا صارمًا بتوسيع جهود (بيسا) في هذا النوع من الاختبارات، نفاجأ بظهور مناطق رمادية كثيرة في أثناء عملنا؛ لا تتمتع المهام المفتوحة (التقديرية) بالثبات الكافي؛ لأنك تحتاج إلى عدد أكبر منها، وتحتاج مقوِّمين بشرًا، وتحتاج وسائل تقويم متعددة، وثمة مشكلة الثبات بين المقومين المختلفين، ولا يفضل الناس هذا النوع من الامتحانات؛ لأنها أكثر تكلفة، وأكثر عرضة للانتقاد، لكنها تتيح معلومات أصدق، عندما تكون متوازنة؛ لأن الناس يقدمون استجابات مختلفة جدًّا في الاختبارات المفتوحة، عما يقدمونه في اختبارات الاختيار من متعدد.

الواقع أن التعقيدات لا تأتي من جمع البيانات، بل من طريقة معالجتها؛ ففي مايو عام 2014م، نشرت مجموعة كبيرة من الأكاديميين، من مختلف أنحاء العالم، خطابًا مفتوحًا إلى أندرياس شلايشر، تطلب منه، ضمن ما تطلب، أن يفكر اتحاد (بيسا) في تقديم بديل لجداول الاتحاد، وإتاحة تجاوز دورة امتحانية، حتى تستطيع النظم المدرسية أن تستغل الوقت المتوفر في استيعاب ما تعلَّمته.

«تنتظر الحكومات نتائج بيسا في قلق، وكذلك وزراء التعليم ومجالس تحرير الصحف، كما يستشهد بها عدد لا يحصى من تقارير السياسة بحسابها مرجعًا». كما يرد في الخطاب الذي يواصل: «بدأت هذه النتائج في إحداث أثر عميق في الممارسات التعليمية في دول كثيرة؛ فقد بدأ عدد من الدول بإحداث تغيير كبير في أنظمتها التعليمية بسبب بيسا، على أمل تحسين ترتيبها. كما أدى غياب التقدم إلى إعلان دول كثيرة عن وجود أزمة صدمة بيسا لديها، ودعوتها لاستقالات وإصلاحات واسعة طبقًا لمبادئ بيسا[21].

من أكبر المخاوف التي عبر عنها كتاب الخطاب أن نتائج (بيسا) تنزع إلى زيادة الاختبارات المقنَّنة داخل الدول، والسعي إلى إصلاحات قصيرة المدى، مصممة لرفع ترتيب الدولة، وليس لتحسين ظروف الطلاب.

أنا لا أقصد، ولا يقصد غيري من نقاد الاختبارات عالية الخطر، أن نشكك في ضرورة القياس لأنه جزء حيوي من التعليم، لكننا نشكك في الصورة التي يتخذها حاليًّا، ونلفت النظر إلى ما تحدثه من ضرر، فما القياس؟ وما وظيفته؟

## الحاجة إلى القياس (والاختبارات)

القياس عملية إصدار أحكام عن تقدم الطلاب وتحصيلهم، وكما أقول في كتابي **نتاج عقولنا**، لكل قياس مكونان: وصف وتقويم، فإذا قلت إن شخصًا ما يستطيع أن يجري لمسافة ميل في أربع دقائق، أو يتحدث الفرنسية، فإن هذا وصف محايد لما يستطيع الشخص أن يفعله، أما إذا قلت إن هذا الشخص هو أفضل رياضي في الحي، أو يتحدث الفرنسية كأهلها، فهذا تقويم؛ الفارق أن التقويم يقارن أداء الأفراد بأداء غيرهم، ويرتبهم حسب معايير محددة.

للقياس أدوار عدَّة، أولها تشخيصيٌّ لمساعدة المعلمين على فهم استعداد طلابهم ومستويات نموِّهم. والثاني تكوينيٌّ لجمع معلومات عن عمل الطلاب وأنشطتهم، ودعم تقدمهم. والثالث استنتاجيٌّ يتعلق بإصدار أحكام على مجمل الأداء عند نهاية برنامج عمل.

إن إحدى مشكلات نظم القياس التي تستخدم الحروف والدرجات أنها عادة قليلة الوصف كثيفة المقارنة. يعطى الطلاب أحيانًا درجات دون أن يعرفوا دلالتها، ويعطي المعلمون درجات أحيانًا دون أن يكونوا واثقين من أسبابها. المشكلة الثانية، هي أن حرفًا أو رقمًا واحدًا يعجز عن توصيل تعقيدات العملية التي تقصد تلخيصها، وبعض نواتج التعلم لا يمكن التعبير السليم عنها بهذه الطريقة على الإطلاق، وكما قال التربوي البارز إليوت آيزينار Elliot Eisner ذات مرة: ليست الأشياء المهمة كلها قابلة للقياس.

إحدى طرائق تعظيم قيمة القياس أنْ نفصل بين عنصرَيِّ الوصف والمقارنة، فيمكن أن تستخدم اختبارات الطلاب أشكالًا كثيرة من الإثباتات، منها: المشاركة في الصف، وملفات

الإنجاز، والمقالات المكتوبة، والتكليفات بوساطة وسائط أخرى؛ فملفات الإنجاز تسمح بوصف تفصيليٍّ لما قام به الطلاب مع أمثلة وتعليقات تأمليَّة صادرة عنهم وعن الآخرين.

وفي قياس جماعة الأقران يسهم الطلاب في الحكم على عمل بعضهم، وفي المعايير التي تستخدم في القياس، ويمكن الاستفادة من هذه الأساليب في قياس العمل الإبداعي على وجه الخصوص.

اعتاد بعض المعلمين على استخدام مدى واسع من طرائق القياس داخل الصف، لكن طغيان عمليات الاختبار المقنَّن جعل الأمر أصعب عليهم، ومع ذلك فبعض المعلمين يقاومون من داخل فصولهم؛ صحيح أن ثمة تحديات، ولكنْ ثمة فوائد جمة أيضًا؛ على سبيل المثال قرر جو باور Joe Bower، وهو مدرس للعلوم وفنون اللغة منذ ستة أعوام، عدم الالتزام باستخدام الدرجات بوصفها طريقة رئيسة للقياس.

وهو يقول: «صرت أرى الدرجات، كأنها مخدرات المدارس، وقد أدمنَّاها جميعًا... كانت الدرجات في الأصل أدواتٍ يستخدمها المعلمون، لكن صار المعلمون الآن أدوات تستخدمها الدرجات»[22].

اكتشف باور أن الاعتماد على تقدير الدرجات يقلل من تأثيره بوصفه معلمًا، ويؤثر سلبًا في الطلاب؛ فيقول إنه عندما يُسأل كثير من الطلاب عما استفادوه من مادة ما يجيبون بشيء مثل: «حصلت على تقدير متميِّز»، وبرغم إصرار المدرسة على أن يضع درجاته في بطاقات التقارير، فقد ألغى ما عداها من درجات داخل فصله، ولم يكن يسلم درجة بطاقة التقرير، قبل أن يطلب من طلابه تقييم عملهم بأنفسهم، وتقدير الدرجة التي سيحصلون عليها. في المعتاد، كانت درجات الطلاب تتوافق مع تقديراته، وكانت الحالات التي اقترح فيها الطلاب درجة أقل مما قدَّر هو، أكثرَ من الحالات التي تجاوزوا تقديراته. كان من نتائج استبعاد الدرجات أن خفَّ الضغط على الطلاب، وصار متاحًا لهم التركيز على محتوى التكليفات الدراسية والعمل داخل الصف بدلًا من التركيز على قوائم التقدير اللفظي لتقدير الدرجات.

«عندما نحاول أن نختزل شيئًا يتميز بالفوضوية الرائعة مثل التعلُّم الحقيقي، فإننا دائمًا نخفي أكثر مما نكشف، إن تقرير الدرجات يفسد القياس؛ لأن القياس ليس مجرد جدول بل حوار، وأنا معلم نشيط جدًّا، يقيِّم طلابه كل يوم، لكنني ألقيت دفتر درجاتي جانبًا منذ

سنوات، وإذا أردنا أن نجد الطريق ونحقق التعلم، وليس تقدير الدرجات، وهو الاهتمام الأول للمدرسة، فلابد أن نتخلص من هوس اختزال التعليم والناس في أرقام».

## حقيقي بدلًا من رمزي، للحظة واحدة على الأقل

وسط ذلك الهجوم على الاختبارات المقنَّنة وما بها من مشكلات، هل توجد أي نماذج أخرى للقياس على نطاق واسع، أداؤها أفضل؟ إن أفضل طريقة للنظر إلى الأمام أحيانًا تكون بالبحث عن الإلهام في الماضي.

أخبرتني بيغ سيفرسون Peg Syverson، وهي أحد المسؤولين عن سجل التعلم Learning Record، أن «كثيرًا من الناس لا يعلمون أن لدينا نموذج قياس ذا نطاق واسع، نجح في كاليفورنيا وغيرها؛ إذ يتيح أنواعًا من البيانات المطلوبة لاتخاذ القرارات، لكنه ليس معزولًا عن السياق الغني لعمل الطلاب الفعلي، فإن أحد أكبر مساوئ قانون عدم حرمان أي طفل أنه دمَّر التطبيق الناجح لفكرة سجل التعلم».

كانت نشأة سجل التعلم في لندن نتيجة الحاجة إلى تعرُّف تقدم الطلاب الذين لا تصلح الاختبارات المعيارية لقياس إنجازهم؛ توافدت على مدارس الأحياء الفقيرة في لندن أعداد ضخمة من الأطفال من أنحاء العالم كلها، ولم يكن لدى المعلمين سوى موارد محدودة، كان هؤلاء المعلمون يدركون أن الطلاب يتعلمون، لكن تعلمهم هذا لم يكن يظهر في الاختبارات المقنَّنة؛ لأن الطلاب مازالوا يتعلمون اللغة الإنجليزية، فازداد إصرار المعلمين على إيجاد طريقة لتعرُّف التعلم الذي كانوا يرونه بأعينهم وتوثيقه. استعانوا بميرا بارز Myra Barrs وهيلاري هيستر Hillary Hester وغيرهما من الباحثين الجامعيين، وكانوا مهتمين بعمل ليف فايغوتسكي Lev Vygotsky، وهو الذي قدم إطار العمل لأبعاد التعلم، الذي استخدم في مشروع سجل التعلم، وكانت القراءة والكتابة أكثر ما اهتموا به، فتعاونوا مع المعلمين في وضع الأشياء المطلوبة لمعرفة مدى تقدم الأطفال في التعلم الخاص بالقراءة، وفهمه؛ فوضعوا نظامًا متماسكًا سموه سجل اللغة الأوَّلي، كان يتكون من ثماني صفحات، وثقوا فيه ملاحظات المعلمين، وأجروا مقابلات شخصية مع أولياء الأمور اضطروا إلى إجرائها بلغة أولياء الأمور الأصلية، فسألوهم: «ماذا يحب أن يفعل ولدك؟) وأجروا أيضًا مقابلات شخصية مع الطلاب؛ حتى يعرفوا شيئًا في البداية عن بيئتهم، وقد ذهل المعلمون، وكذلك أولياء الأمور؛ لأن المعلمين كانوا يحاولون معرفة

الأشياء التي يستمتع الأطفال بعملها، فكانوا يكتشفون أن طفلًا ما يحب العلوم لكنه لا يحب القراءة، فيبدأ المعلم بالتفكير في حلول إبداعية؛ مثل: «ماذا عن قصص الخيال العلمي؟». بدؤوا بالبحث عن طرائق تُعلي من قدر تطور قراءة الطلاب للغتهم الأم.

صاروا مقتنعين بأنهم يستطيعون أن يستخدموا نموذجًا إمبريقيًّا (تجريبيًّا) حقيقيًّا؛ نموذج تستخدمه إذا أردت أن تدرس التغير في أي نظام تكيُّفي. أولًا، تأخذ صورة سريعة للنظام في البداية، ثم تلاحظه مع الزمن وتجمع نماذج من العمل، ثم تقوم بالتحليل. «وهنا تنهار أغلب نظم ملفات الإنجاز، بسبب غياب التحليل، وينبغي أن توضع أسس للتحليل. ينبغي أن يُبنى على إطار نظري. هل تريد أن تعرف إن كان الماء صالحًا للشرب؟ هل هو بيئة صالحة لحياة الضفادع أو غيرها؟». يعطينا فايغوتسكي إطار عمل يسمح لنا بالكلام عن تعلم الطلاب بصورة متعددة الأوجه؛ وعليه، تمكنوا من الكلام مع أولياء الأمور عما يتعلمه الطلاب، فقالوا: تزداد ثقة الطالب في قراءة الكتب غير المألوفة له، أو يكتسب مهارات في تفسير معاني الكلمات التي لم يرها من قبل. بدأ أولياء الأمور في الشعور باحترام كبير لعلم المعلمين وخبرتهم.

«صار هذا نموذجًا قويًّا حقًّا في المملكة المتحدة، واشتعل حماس المعلمين؛ لأنه يدفعهم إلى التفكير الإبداعي في عملهم، وإلى التفكير بطريقة مختلفة في الأطفال الذين كانوا يُعدونهم مشكلات، بدأ الفضول يملؤهم بشأن هؤلاء الأطفال؛ ما الذي سيساعدهم على التعلم؟ ماذا سيكشفون لي؟».

في هذا الوقت، كانت مايرا بارز رئيسًا لمشروع القراءة بكاليفورنيا. دعت فريق سجل اللغة الأَوَّلي إلى كاليفورنيا، وبدؤوا العمل معًا لوضع تصميم للسنوات من الروضة حتى الصف الثاني عشر، وبدؤوا باستخدامه في مشروعات استطلاعية في المدارس، وعند هذه النقطة انضمت بيغ باحثًا مشاركًا لتحسين أدوات القياس.

«لم نكن نستخدم رءوس موضوعات، بل مقاييس تنموية تحوي توصيفات لما تراه يصدر بصورة معتادة عن الطلاب، وهم يجتازون مراحل تعلم القراءة والكتابة المختلفة، وكان ذلك مبنيًّا على آلاف وآلاف الساعات من ملاحظة أطفال حقيقيين؛ مثلًا يمكن أن نقول في المقياس الأول إن الطفل عندما يخط بقلم على ورقة، ثم يشير إلى ما خطه ثم يغمغم بشيء لك، فهذا استعداد لتعلم القراءة والكتابة؛ لأنه بذلك يبدأ في إدراك الصلة بين اللغة والعلامات التي على

الورق، ساعد ذلك المعلمين مساعدة ضخمة؛ لأنهم تمكنوا من تحديد المرحلة التي يدخل إليها الطفل، وطريقة توفير المصادر لهذه المرحلة».

أدركنا ساعتها أننا وضعنا أيدينا على شيء، وكان علينا أن نجعل هذا بديلًا مقبولًا للاختبارات المقنَّنة، في ما يخص أبناء مدارس الأحياء الفقيرة تحديدًا؛ لأن هذا يضع الطلاب على منحنى التعلم، ولا يصوِّرهم على أنهم فاشلين في شيء ما، أثمرت محاولاتهم مع وزارة التعليم في كاليفورنيا في لقائهم مع كبير متخصصي القياس النفسي في الولاية. وكما تروي بيغ، بعد إطلاعه على نموذج توضيحي لسجل التعلم، قال الرجل: أنتم تتكلمون عن القياس الحقيقي؛ فليس لدينا الآن سوى قياس رمزي.

سمحت ولاية كاليفورنيا بأن يكون هذا بديلًا للاختبارات المقنَّنة، وهو الأسلوب الوحيد الذي صُدِّق عليه بوصفه بديلًا حتى الآن. تجولنا في أنحاء كاليفورنيا ونيويورك وأوهايو، وكان حماس المعلمين طاغيًا، وكذلك أولياء الأمور. لم يصدقوا الاهتمام والحرص الذي يبديه المعلمون؛ كانت سجلات التعلم معلنة يستطيع أولياء الأمور أن يطلعوا على ما يراقبه المعلمون من أعمال أولادهم، ثم يطلعون على التحليل، وكان الأمر ثورة تمامًا عند الأطفال، أن ينظر إليهم المعلمون بهذه الصورة، إذ كان المعلمون مشغولين تمامًا بالبحث عما يبدي الأطفال معرفةً به. «حققنا نجاحًا تامًّا، قضى عليه قانون عدم حرمان أي طفل قضاءً مُبرمًا».

وصف فير تست سجل التعلم بأنه عملية قياس قوية ... «عملية يتولى الطلاب بوساطتها مسؤولية تعلمهم، ويوثِّقون هذا التعلم، وهو وسيلة لتحقيق دمج أكبر لأولياء الأمور في المدرسة»[23]. وبعد أن أجبر قانون عدم حرمان أي طفل النظم المدرسية على الالتزام بمعيار قياس واحد، انهار مشروع سجل التعلم، وتشغل بي غالين وظيفة أستاذ بجامعة تكساس، حيث طورت صورة من سجل التعلم على مستوى الكلية حقق نجاحًا ملحوظًا.

«يستخدم طلابي في الدراسات العليا هذا النموذج في أنحاء البلاد كلها، على المستوى الجامعي في الأغلب؛ لأن نظام التعليم العام بيئة مغلقة على نحو صارم مشحونة سياسيًّا، وأنا أقدم المشورة لأعضاء هيئة التدريس على المستوى الجامعي لمن يريد استخدامه».

وهي إلى الآن تحافظ على الشعلة متَّقدةً بالنسبة إلى الصيغة الخاصة بالمراحل من الروضة وحتى الصف الثاني عشر. «سجل التعلم مفتوح ومتاح تمامًا، وأنا أتيحه على الموقع الإلكتروني لكل من يريد تحميله، وتصلني رسائل بريد إلكتروني من معلمي موسيقى في البيرو».

## القياس بوصفه تعلمًا

أثبت سجل التعلم إمكان استخدامه لقياس مدى تعلم عدد كبير من الطلاب، باستخدام مجموعة من المعايير المتفق عليها دون اللجوء إلى الاختبارات المقنَّنة.

سام تشالتين Sam Chaltain هو محرر كتاب **وجوه التعلم: 50 قصة رائعة عن لحظات فارقة في التعليم**، Faces of Learning: 50 Powerful Stories of Defining Moments in Education ومؤلف كتاب **مدرستنا: البحث عن مجتمع في عصر الاختيار**: Our School Searching for Community in the Era of Choice، وغيرهما من الكتب. يرى سام أن المشكلة ليست في القياس والتقنين، وأن المشكلة فيما نختار تقنينه. اختارت الولايات المتحدة أن تقنن الاختبارات والمحاسبة وجاءت النتائج مخيبة للآمال، في حين اختارت فنلندا تقنين أسلوب إعداد المعلمين وليس الاختبارات، ويحظى نظام التعليم الفنلندي بالتقدير في العالم كله. قال سام لي: نعرف من هذا أن التقنين نفسه ليس كلمة بذيئة، بل هذا ما أسبغناه عليها.

عندما يتعلق الأمر بالقياس، فإن النموذج التقليدي في القياس هو قياس من أجل التعلم، أما ما يحب الناس الكلام عنه الآن، فهو أن نموذج القرن الحادي والعشرين هو قياس التعلم، لكن إذا كان القياس هو مجرد طريقة تمكننا من تحديد قدر ما تعلَّمه الطلاب، يكون هدفنا النهائي هو القياس بوصفه تعلمًا، حتى يجري القياس في زمن حقيقي، ويعامَلَ بوصفه العملية التي نستخدمها لتأمل فكرنا وكيفية تغيُّرنا. ثمة مدارس تفعل ذلك، فمدرسة في نيوهامشير، يرى القائمون عليها أن أهم شيء هو أن يكتسب خريجو مدرستهم سبع عشرة عادة محددة تتعلق بالعقل والعمل؛ من التعاون والقيادة حتى الفضول والاندهاش، وقد وضعوا هذه المعايير السلوكية بعد تفكير عميق، وقسموا كل عادة منها إلى مهارات فرعية.

إذا كنا جادين بشأن الفضول والاندهاش، فلابد أن نفكر: ما العادات الفرعية التي تؤدي إليها؟ تدرك هذه المدرسة أن الطريق إلى الفضول والاندهاش يقتضي الانفتاح على الأفكار

الجديدة وأُلفةَ التعقيد والقدرةَ على طرح الأسئلة. لكل واحدة من العادات الفرعية صفات مختلفة، فثمة صفات للشخص عندما يكون مستجدًّا، ثم أخرى في مرحلة المبتدئ، وكذلك عند الوصول إلى مرحلة الخبير. ليس المعلمون وحدهم من يهتمون بهذا؛ فهي معايير يستخدمها الطلاب وأولياء الأمور طول الوقت، وهذا ما أقصده بالقياس بوصفه تعلمًا.؛ فالصغار في المدرسة يفكرون دائمًا في مكانهم على هذا المسار المتصل، ونتيجة لهذا لم أقابل قط من هو أفضل منهم في التعبير عن نقاط قوتهم ونقاط ضعفهم، وما يريدون أن يفعلوا في حياتهم ولماذا.

يرى سام أن المجتمع المدرسي ينبغي قبل بدء أي مسار في القياس أن يحدد أولًا سمات الخريج المثالي؛ ماذا ينبغي أن يعرف هؤلاء الخريجون؟ كيف يستخدمون ما يعرفون؟ بماذا ستفيدهم هذه المعرفة؟ وما أن تحدد المدرسة هذا، لهم أن يقرروا طريقة قياس له، من جهة أداء الطلاب ومدى فاعلية مجتمع المدرسة (المعلمون والإداريون وأولياء الأمور) في خلق بيئة تسمح بنمو الطلاب وازدهارهم.

ليس القصد وضع مجموعة واحدة فقط من المهارات للخريج المثالي للمدارس كلها؛ لأن المهم هو منح المجتمعات مساحة للتفكُّر في هذه الأسئلة، والإجابة عنها بأنفسهم، ثم جعل هذه الأسئلة تدفع التفكير والتخطيط الإستراتيجي، ومن دون ذلك سنجد في المدارس دائمًا تركيزًا كاملًا على ما تطرحه الحكومة الفيدرالية في سياق المحاسبة.

يوافق مونتي نيل على أن ملفات الإنجاز والمشروعات والمهام الممتدة هي الطريق الصحيح، ولا يعني ذلك عدم استخدام اختبارات الإجابات القصيرة والاختيار من متعدد عناصرَ فيه؛ نريد أن يكون أطفالنا قادرين على التفكير والحكم والكتابة والكلام، وإثبات القدرة على تطبيق معرفتهم بطرائق معقدة، نعرف أن المشروعات والمهام المعدَّة جيِّدًا يمكن أن تفعل هذا... وعلى المدارس والمناطق التي تريد أن تحسن التعلم وتوفر محاسبة مجدية ألا تعتمد على الاختيارات المقنَّنة وحدها؛ لأن بها عيوبًا أصيلة، فأدواتها تولد معلومات غير كافية اتساعًا وعمقًا، وعلى الولايات والمناطق والمدارس أن تجد سبلًا لتقوية مكانة القياسات التي تتم داخل الصف، واستخدام المعلومات التي تأتي من هذه المقاييس الأغنى حتى يطلع عليها الناس.

## صورة سريعة للمستقبل

في موضع سابق من هذا الفصل، تحدثت عن جو باور الذي اتخذ خطوة جريئة، فاستبعد الدرجات من صفه. تفعل بعض المدارس هذا على مستوى أوسع كثيرًا. تشترك منطقة سواري التعليمية، في بريتيش كولومبيا، مع مناطق تعليمية عدَّة حول العالم، في برنامج استطلاعي يستبعد تقديرات الأرقام والحروف، ويستخدم بدلًا منها صورة من القياس الكليِّ. يستخدم المعلمون في هذه المدارس برنامج ملفات إنجاز على الإنترنت يسمى فرش جريد Fresh Grade فيصورون عمل كل طالب، ليكوِّنوا نظرة متصلة على تقدم كل طالب يستطيع أولياء الأمور والطلاب أنفسهم الاطلاع عليها؛ يعمل المعلمون مع الطلاب على تعريف أهداف كل فرد، وعلامات التقدم. ويعرَّف النجاح بوساطة تلك الأهداف والعلامات.

«هذه الحركة هي -جزئيًّا- استجابة النظام المدرسيِّ لدعوات من أصحاب الأعمال، ليركز على مهارات مثل الإبداع والاتصال، وليس مجرد معرفة المواد التقليدية»[24] حسب ما يقوله الصحفي إرين ميلار Erin Millar. «إن حركة استبعاد الدرجات توازي اعتقادًا ينتشر بين أصحاب الأعمال؛ أن القياس التقليدي ليس أفضل الطرائق لمساعدة الطلاب على تنمية المهارات التي يحتاجونها للنجاح في عالم اليوم، وحسب دراسات مسحية؛ قومية وعالمية، لا يشتكي أصحاب الأعمال من طالبي العمل الذين تنقصهم معرفة معينة أو مهارات فنية، هي سهلة الاختيار وسهل التعبير عنها بحرف أو درجة، لكنهم يريدون موظفين قادرين على التحليل الناقد والتعاون والتواصل وحل المشكلات والتفكير الإبداعي».

إن النتائج في برتيش كولومبيا مشجعة، حيث يستخدم البرنامج منذ مدة. وبينما يختلط الأمر على بعض أولياء الأمور بشأن سبل خوض غمار الحياة دون درجات اختبار، يحب كثير غيرهم فوريَّة البرنامج، إذ يحصلون على تقارير شبه يومية، ومن مزايا هذا فرصة التدخل المبكر، عندما يعاني أبناؤهم في العمل، يمكنهم تقديم المساعدة بسرعة، بخلاف نظام تقدير الدرجات الذي قد لا يسمح باكتشاف المشكلات لدى الطفل حتى نهاية مدَّة الاختبارات، كذلك يشعر المعلمون بالحماس تجاه البرنامج، مع أن هذا يعني المزيد من العمل لهم.

أخبرني إرين أن «المعلمين يقضون أوقاتًا طويلة مع الطلاب واحدًا تلو الآخر ليضعوا الأهداف سويًّا، فيقولون أشياء؛ مثل: لابد لك من اكتساب مهارات لتقويم عملك، واكتساب مهارات لتقويم عمل الآخرين».

من اللافت للنظر- لكنه لا يثير الدهشة- أن أكبر المقاومين هم من ينجحون في ظل صورة تقويم الدرجات التقليدية. سمعت من معلمين أن أشد الطلاب مقاومةً للبرنامج كانوا أعلى الطلاب تحصيلًا في النظام القديم؛ لأنك في النظام الجديد لا يمكن أن تحصل على تقدير A (متميِّز) من دون أن تحقق تقدمًا، أما الطالب الذي اعتاد على التفوق في النظام القديم لأنه يجيد اللعبة، ويعرف ما يريده المعلم، فقد تغيرت القواعد تمامًا عنده، أما الطلاب المتوسطون ومنخفضو التحصيل، فقد تجاوبوا مع البرنامج على نحو مدهش؛ لأنه سُمح لهم -فجأة- وضعُ أهدافهم ومراقبة تقدمهم.

لا يخلو هذا البرنامج الجديد من تحديات؛ فالجامعات -مثلًا- ما زالت تحاول إيجاد طريقة لمعادلة نتائج الطلاب القائمة على نظام القياس الجديد مع الدرجات التقليدية، لكنها تبذل جهودًا لتحقيق ذلك، لا سيَّما في الجامعات الأصغر، ما يسمح لها بدراسة ملفات الإنجاز من دون أرقام، وحتى المؤسسات الأكبر تحاول التكيُّف؛ يقول إرين: «أرى الإرادة متوافرة، لكن أولًا ثمَّة أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات».

هذه هي- على الأقل- الأسئلة الصحيحة التي ينبغي طرحها، وهي مثل أفضل الأسئلة ليس لها إجابة واحدة، هكذا تسير الحياة عادةً، وهذا ما يجب أن يعكسه القياس الحقيقي في التعليم.

القياس جزء أصيل من التعليم والتعلم، فإذا أُحسن فهمه وإعداده، فإن القياس الرسمي وغير الرسمي يساعدان الطلاب على التعلم والتحصيل بثلاثة طرائق على الأقل:

- **الدافعية** Motivation: يحفز القياس الفعال الطلاب على الأداء الجيد، ويقدم تغذية راجعة بناءة لمساعدتهم على فهم أدائهم، وتشجيعهم على التحسُّن قدر الإمكان.
- **التحصيل** Achievement: يوفر القياس الفعال معلومات عمَّا فعله الطلاب وأنجزوه حقيقة، ويوفر مقارنات دالَّة مع إنجازات آخرين باستخدام معايير متشابهة، حتى يستطيع الطلاب وغيرهم تكوين أحكامهم بشأن تقدمهم وإمكاناتهم.
- **المعايير** Standards : يضع القياس الفعال معايير مجدية يمكن أن ترفع تطلعات الطلاب، وتسهم في إرشادهم، وتقدم لهم الدعم العملي الذي قد يحتاجونه لتحقيقها.

لا ينبغي عدُّ القياس غايةَ التعليم، بأي معنى. فهو جزء جوهري في العملية كلها، وينبغي أن يتداخل، بصورة تلقائية، مع عمليات التدريس والتعلم وتطوير المناهج اليومية، ينبغي أن يكون جزءًا أصيلًا، لكنه داعم لثقافة المدرسة، وتحقيق هذا التوازن من أهم أدوار القيادة المدرسية.